

نحن جميعاً ننتمي بأقرب ميراثنا إلى عصر الاحتلال الأجنبي ، حيث عطلت الطاقة العقلية لمن تناح لهم فرصة التعليم من أبناء الأمة ، وصُيرت المدارس مصانع لسبك ما تحتاج إليه أجهزة الدواوين من أجهزة بشرية .

وفُتحت الأبواب ، كلُّ الأبواب ، للبعثات التبشيرية والإرساليات الأجنبية من كل جنس وملة ، لتتغلغل في صميم الوجود الفكري للأمة وتسلخ من استطاعت من أبنائها ، بما تؤصل فيهم من عقدة الشعور بالنقص ، وما تلقى في روعهم من أن الشرقية سمة تخلف وانحطاط ، وأن اتصالنا بقديمتنا ظاهرة تحجر وجمود .

وفي أقصى الطرف المقابل ، كانت المعاهد الدينية تصنع صنفاً آخر من الطلاب ، انفصموا تماماً عن العصر ، وحُصِنوا ضد جرثومة التطور وبدعة التجديد وزينغ العلم الحديث ، فخرجوا وهم واثقون أن لديهم وحدهم كنوز المعرفة ومفاتيح فهم الكون ، أما الآخرون فيعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا .

وماج الفراغ السحيق بين الطرفين المتقابلين بتيارات شتى وافدة من الخارج ، وتدقق سبيل الغزو الفكري يجتاح الحمى المستباح ، دون أن تصده سدود وحواجز ، والأمية فاشية والجهل فريضة مقررة في شرعة الحكام .

وقد كان إنشاء الجامعة في مصر عملاً قومياً حاسماً لإيجاد بيئة محررة الفكر تعتم بها الأمة في مهب الريح ، وتخط لها طريقاً مأموناً عبر الهوة السحيقة بين طلاب المعاهد الدينية وطلاب سان مارك والفريير والجزويت وفيكتوريا والأمريكان وما لا أحصى من مدارس الإرساليات التي انتشرت في الوطن العربي تحت ظل الاستعمار وفي حمايته ورعايته .

كما كان التعليم الجامعي في الوقت نفسه ، خطة قومية مضادة لسياسة الاستعمار التعليمية ، وإطلاقاً لطاقت الأمة العقلية من مصنع الآلات البشرية لأجهزة الدواوين . وبدأت الجامعة تشق طريقها في ظروف صعبة ، وهي تدرك رسالتها حق الإدراك وتعي هدفها أتم الوعي .

دون أن يتشابه عليها الأمر فتخلط بين مهمتها في قيادة الحياة العقلية للأمة وتحقيق وجودها الفكري الحر ، وفتح الآفاق الفسيحة لطموحها ، وبين مهمة